مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (10) العدد (10) 2026
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (10) 2026

البعد الديني للمكان في شعر الشريف المرتضى

د. صالح إبراهيم نجم *

(تاريخ الإيداع 3/25 /2026. قُبِل للنشر في 5/10 /2026)

□ ملخّص □

يؤدّي المكان في الأدب عموماً والشعر منه خصوصاً دوراً مهمّاً، إذ يستطيع الشاعر من خلاله التعبير عن مواقفه ومشاعره، وتتبّع أحوال مجتمعه، وتسليط الضوء على قيمه وتقاليده؛ لذلك كان هذا المكان بإحالاته الفكرية وأبعاده الدينية جديراً بالبحث والدراسة، ولاسيّما عند الشريف المرتضى بوصفه شاعراً مقرّباً من السلطة في العصر العباسي أوّلاً، وبوصفه مسؤولاً عن مناسك الحج في ذلك الوقت ثانياً، فقد وقف البحث في شعره عند المكان المقدّس ممثّلاً بـ "نجد"، المكان الذي أضحى في نصوصه الشعرية محلّ القسم مرّةً، ومحلّ الخير والحُسن مرّة أخرى، وهو ما يزال يرصد عن كثب تفاصيل المكان وجزئياته وشخوصه في فضاء شعريّ ممتدّ ينقلنا المرتضى بوساطته من الواقع والحقيقة إلى المُتخيَّل والمجاز.

الكلمات المفتاحية: البعد الديني، المكان، الشريف المرتضى.

* مدرّس الأدب المملوكي والعثماني، قسم اللغة العربية، جامعة طرطوس، سوريا.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (10) العدد (10) 2026
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (10) 2026

The religious dimension of the place in the poetry of Al-Sharif Al-Murtada

* **Dr: Saleh Ibraheem Ngm**

(Received 25/3 /2026. 10 /5/2026)

□ **ABSTRACT**□

Spatial space slays an important role in literature in general and poetry in particular. Through it, the poet can express his attitudes and feelings track his community conditions, highlight its values and traditions.

So that, the space in its intellectual references and semantic dimensions worth research and study especially for Sharif Al-Murtada being initially a poet close to the authority in Abbasid Era and secondly being responsible for pilgrimage ceremonies at that time. Research in his poetry stopped at the holy place represented by " NAJD". The place which has replaced swearing once, and a place for the good and beauty in another.

He still monitors closely the details and specifics of this place and its characters in a spanning poetic space.

Al-Murtada takes us by it from reality and truth into imaginary and metaphor.

Key words: The religious dimension, Place spatial, Sharif Al Murtada.

* Doctor in Mamloky and Othmany age Arabic department, Tartous, Syria

1 – المقدّمة:

تبدو الملامح الدينية في شعر الشريف المرتضى في غير قليل من معانيه وموضوعاته ولاسيّما إذا تعلق الأمر ببلاد نجد التي كان المرتضى كثيراً ما يبدي شوقه لها وحنينه لأهليها، ما جعل المكان في شعره شديد التأثير بالمرتضى بوصفه مسؤولاً عن مناسك الحج من ناحية وبوصفه شاعراً يتوسل بالمكان الديني للتعبير عما يجول في خلده من مشاعر وما يدور في مخيلته من معان تتصل بنجد وتحيل إليها.

2– أهميّة البحث:

يقدّم البحث إضافة جديدة إلى مجموع الدراسات التي تناولت إنتاج الشريف المرتضى الشعري، ذلك لأنه تناول نصوصه الشعرية بموجب ما أوحى إليه المكان فيها، على سبيل السياق أو على سبيل الحياة، هذا من جانب، ولأنه وقف عند هذه النصوص مستنطقاً فضاءاتها ولاسيّما الفضاء المكاني الذي أفصح عن المعاني والدلالات الدينية وقد احتوت المكان ونطقت بلسان حاله من جانب آخر.

3 – أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إماطة اللثام عن الأبعاد الدينية للمكان في شعر المرتضى، وعن إحالاته القرآنية انطلاقاً من القيمة التي تمثلها " نجد" في نفس المرتضى وليس انتهاءً بدلالاتها الممتدة والمطلقة، سواء على سبيل المعيش من المكان أو على سبيل المُتذكّر منه.

4 – منهجيّة البحث:

يعتمد البحث في شعر الشريف المرتضى ها هنا المنهج الاجتماعي وما يفرزة من أدوات تصل الشاعر بالمكان والناس والحياة، فضلاً عن الإفادة من المنهج التاريخي الذي يمدّ الدراسة بما تحتاج إليه في سبيل التعريف بالشاعر أو ببعض المناسك والتقاليد الدينية التي شكلت الحيّز الأعم والأشمل لعلاقة الشاعر بالمكان، ولاسيّما أننا ننتقل في هذا الحيّز من العراق إلى نجد ومن النصّ الشعريّ إلى النصّ القرآنيّ.

5 – الدّراسات السّابقة:

1 – شعرية المكان (قراءة في شعر مانع سعيد العتيبة): أحمد ملحم إبراهيم، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م.

يتناول الباحث في هذه الدراسة الملامح الشعرية للمكان المتمثّل بالوطن، ويعرّج في دراسة مستفيضة على ذاكرة المكان من جانب وعلى المكان الأنثى من جانب آخر.

2 – جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث (سعدي يوسف أنموذجاً): مرتضى حسين علي حسن، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا، 2016م.

يدور الحديث في هذه الرسالة حول أنماط المكان وآليات توظيفها في الشعر العراقي الحديث عموماً وشعر سعدي يوسف منه خصوصاً، ثم يتفرّع الحديث ليشمل جماليات المكان السينمائي والدرامي والتشكيلي في شعر سعدي يوسف.

3 – أساليب الصياغة في شعر الشريف المرتضى(436 هـ)، أحمد سالم عبيد الشمري، كلية الآداب في جامعة الكوفة، العراق، مجلة اللغة العربية وآدابها، يناير 2013م.

وقد تناولت هذه الدراسة مجموع الأساليب التي سخّرها المرتضى في نظم نصوصه الشعرية على المستويين: البلاغي حيث التشبيه والاستعارة والكناية، والنحوي التركيبي بالنظر إلى أنواع الخبر والإنشاء بوجهيه الطلبي وغير الطلبي والحذف والتقديم والتأخير.

البعد الدينيّ للمكان في شعر الشريف المرتضى:

إن المطّلع على ترجمة الشاعر المرتضى يدرك تماماً مدى أهمية البعد الديني ليس في ديوانه وحسب، بل أيضاً في فضاءاته الحياتية بوصفه سيداً شريفاً من الأشراف الطالبيين أولاً، وبوصفه شاعراً مقرّباً من ذوي السلطان وأصحاب الملك في حينه ثانياً، وبوصفه المسؤول عن الحجّ والمظالم في وقته ثالثاً، فضلاً عما كان يتحلى به من خُلُق حسن، وعلم واسع، وفقهٍ وحكمة ومكانة في أهله ومنطقته[1]، فقد " كان من الأذكياء الأولياء، المتبحرين في الكلام والاعتزال، والأدب والشعر"[2].

كلّ ما سلف كان كفيلاً بأن يسدل الستار عن إيحاءات نصوص المرتضى الشعرية ونحن بصدد البحث عن المكان وإحالاته الدينية فيها، مثلما كان كفيلاً بأن يمنح منتجه الشعري غير قليل من الرصانة في انتقاء المعاني، والبراعة في نظم الموضوعات، والحصافة في نسج الفضاءات المكانية بما يعبر خير تعبير عن مدى تعلّقه بها، أو نفوره منها، مرّة باستذكارها وبث الحياة فيها، ومرّة بحجبها والتكتم عليها من خلال وضعها موضع الكمون والاحتجاب، وذلك كله استجابة لشاعرية كان يتزيّا بها المرتضى، ويستحضر بوساطتها المعاني بلبوس قشيب يتناسب مع الحدث الشعري، ويتماهى مع فضاءاته المختلفة.

يقول المرتضى وقد براه الشوق إلى بلاد نجد على رحابتها وسعة امتدادها، إذ نجده يظهر الحنين إلى ثرى نجد وهو البعيد عنها جغرافياً، القريب منها وجدانياً، لينتمي إليها، ويجعل من ذاته مكوناً من مكوناتها في مواجهة من ينكر عليه هذا الحنين وهذا الانتماء[3]:

أُحبُّ ثرى نجدٍ ونجدٌ بعيدةٌ ألا حبّذا نجدٌ وإنْ لم تُفِد قُربا
يقولونَ: نجدٌ لستَ من شِعبِ أهلها –وقد صدقوا– ولكنّني منهمُ حبّا
كأنّني وقد فارقتُ نجداً شقاوةً فتىً ضلّ عنهُ قلبُهُ يبتغي قلبا

استطاع المرتضى بما يكنّه لنجد من حبّ أن يحضرها إلى حيث هو موجود، ويأتي بها مجازاً إلى حيث هو كائن، على الرغم من بعده عنها وبعدها عنه حقيقة، وبالرغم من ادعاء القائلين إنه ليس من أهلها ولا هو

---

[1] - انظر: المرتضى، الشريف، 1997م ، *ديوان الشريف المرتضى*، شرح محمد ألتونجي، ط1، دار الجيل، بيروت، ج1 ، ص7 –11.
وفيه أن الشريف المرتضى: هو أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن إبراهيم، العلوي الموسوي البغدادي، ولد ببغداد عام 355هـ، وتوفي سنة 436هـ
وانظر: الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن،1961م ، *الفهرست*، ط2 ، تحقيق: محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ص99.
وانظر: ابن الجوزي، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص120.
وانظر أيضاً: ابن خلكان، 1970م، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* ، تحقيق: د. إحسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت ، لبنان، ص313- 315.
وانظر كذلك: الشمري، أحمد سالم عبيد، يناير 2013م، *أساليب الصياغة في شعر الشريف المرتضى(436 هـ)*، كلية الآداب في جامعة الكوفة، العراق، مجلة اللغة العربية وآدابها، ص81.

[2] - الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، 1983م، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط1، مؤسسة الرسالة، ج17، ص589.

[3] - (المرتضى، 1997م ،ج1، ص41).

ينتمي إلى ربوعها، غير أن هذا الحيّز المكاني المتمثل بنجد على مستوى أهلها طوراً، وعلى مستوى ثراها طوراً آخر، قد احتوته عاطفة الحبّ المصرّح بها في صدر البيت الأول، ولا سيّما أن قلب الشاعر ما يزال في نجد يبحث له عن قرين له قد أوقد بين ضلوعه نار الحنين، وألصق به صفة الشقاوة والأسى بعد مغادرته لهذه البلاد التي حازت من المرتضى قلبه وروحه، والتي ما زال في توق واشتياق للعودة إليها وإلى أهليها على وجه المجاز قبل أن يكون على وجه الحقيقة " يبتغي قلبا"، إذ "يغدو الفضاء الجغرافي مندوحةً يفرد المبدع من خلالها هواجسه ورؤاه، فضلاً عن أن المكان هو الأداة المهمّة التي تساعد في تبلور شخصية المبدع"[1].

وعليه، فقد سلط المرتضى الضوء على هذا المكان المتمثل بـ" نجد" وهو المرتفع من الأرض في اللغة على وجه العموم، وهو عند الشاعر يحيل إلى مكة المكرمة التي تقع تحديداً غربي نجد، أو هو إحالة على المنطقة الوسطى من جزيرة العرب على وجه الخصوص، ليكتسب السياق الجغرافي بعداً جمالياً، بسبب ما" يمنحه من إمكانية الغوص في أعماق البنية الخفية والمتخفّية في أحشاء النص وأجوائه وتفاعلاته وتناقضاته"[2].

تمتدّ عاطفة الحبّ على مساحة ثلاثة الأبيات المذكورة آنفاً " أحبُّ، حبّذا، حبّا"، فتكرّس نوعاً من الارتباط بالمكان لناحية قداسته وارتباطه بمكة والبيت الحرام مرّة، ولاحتوائه محبوبة الشاعر التي ملكت عليه قلبه من جهة ثانية، الأمر الذي يفسر لنا تكرار لفظة "نجد" في النص وقد بلغ تكرارها من العدّ خمس مرّات. وعليه، فإن البعد الديني لهذا المكان قد استحوذ من وجدان الشاعر حبّاً وحنيناً وارتباطاً مثل ما استحوذه من نصّه المقصود بالدراسة حضوراً وتواجداً، ما يشي بأهمية المكان وشعريته دلالةً وإيحاءً وبموفور حظه من اهتمام الشاعر المرتضى في آن معاً، فـ" شعرية المكان ليست محصورة في المكان وحده، بل باتصاله القوي بخبرة الشاعر ورؤيته فيه"[3].

يبدو أن الحيّز الجغرافي لنجد حيّزٌ أثيرٌ في شعر المرتضى، فهو إما أن يكون حاضراً فيه واصفاً أحواله معرّجاً على جنباته وتضاريسه، وإما أن يكون مستذكراً له، مشتاقاً للمثول في حضرته القدسية وهو يؤدي فريضة الحج مع الحجيج على الرغم من بعد المسافة بين الفضاءين المكانيين، ما يجعل "اهتمام الشاعر بالمكان وحديثه المستفيض عنه نابعاً في الغالب من حبّه له، لأنه يشكّل بالنسبة له عالماً من الذكريات والحضور والجمال"[4]، يقول[5]:

تذكّرتُ نجداً بعدما غُرتُ موهناً وأين امرؤٌ بالغورِ من ساكني نجدِ

إن فعل التذكّر يشكّل محاولة جادّة من قبل المرتضى في استحضار الدلالة المكانية لنجد وقد تمثّلت في ارتفاعها عن الأرض وإشرافها على الفضاء الحيثي المحيط، ولا سيما أننا بصدد الغور الذي يمثل لغة كلّ منخفض من الأرض، ومنه قول الله تعالى:{ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا} سورة الكهف (41)، وقوله أيضاً: {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين} سورة الملك (30)، أو هو عمل يقصد من خلاله المرتضى إلى استعادة هذا المكان ماضوياً في اللحظة المعيشة، ما يبرر ورود التعجب في الشطر الثاني وقد ناء بأعبائها أسلوب الاستفهام

---

[1] - زهيرة، بثينة، 2025م، *الفضاء الجغرافي لدى شعراء المقطعات في العصر الأموي*، مجلة جامعة تشرين- اللاذقية، المجلد 47، ع 2، ص 31.

[2] - قشيش، هاشمي، 2018م، *دلالات الفضاء في الخطاب الشعري المعاصر (الشعر الجزائري ما بعد الثمانينات أنموذجاً)*، أطروحة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة، وهران، ص40.

[3] - إبراهيم، أحمد ملحم، 2011م، *شعرية المكان (قراءة في شعر مانع سعيد العتيبة)*، ط1،عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ص8.

[4] - ياسين، معتز قصي، 2020م، *دلالات المكان في شعر حامد عبد الصمد البصريّ، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع*، كليّة الإمارات للعلوم التربوية، ع58، ص524.

[5] - (المرتضى، 1997م، ج1، ص379).

بـ"أين"، مثلما يبرر حضور ساكني نجد الذين يمثلون دافع الشاعر للاستذكار، وإظهار حالة الحنين إلى هذا الفضاء الذي طالما كان المرتضى يسبغ عليه أسباب الجمال والخير والخصوبة والحياة، يقول في أحد مواسم الحج[1]:

يا أرضَ نجدٍ سقاكِ اللهُ مُنبعقاً من الغمامِ غزيرَ الماءِ ملآنا[2]
إذا تضاحكَ منه البرقُ مُلتمعاً في حافتيهِ أرنَّ الرّعدُ إرنانا
أرضٌ ترى وحشها الآرامَ مُطفلةً وفي منابتها القيصومَ والبانا[3]
وإنْ تُجلْ في ثراها طرفَ مختبرٍ لا تلقَ إلا حديقاتٍ وغُدرانا

فنحن إزاء هذا النص بصدد السقيا والغمام والبرق والرعد والماء والتضاحك والولادة، مثلما نحن بصدد مظاهر الحياة المختلفة وقد تجلت بالغزلان والغدران والشجر الصحراوي الذي أورق وانتشر مشكلاً غير قليل من الحدائق الغنّاء والرياض الخضراء، هكذا هو المشهد النجدي في عيني المرتضى وفي مخيلته، وهذا هو فضاء نجد في موسم الحج، إذ يقترن على امتداد مساحتها الجمال والفتنة والبهاء مع الخير والطهارة والعطاء.

يمنح المرتضى نجداً الحياة في فضاء النصّ بأشكال شتى، مرّة بالنداء محاولاً أنسنتها وبث الروح في ظهرانيها " يا أرضَ نجدٍ"، ومرّة ثانية حين دعا لها بالسقيا مستحضراً الماء بأسبابه ونتائجه، فضلاً عما يحمله الماء من معاني الطهارة والاغتسال، قال تعالى: {أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أ فلا يؤمنون} سورة الأنبياء (30)، (سقاكِ الله، الماء، البرق، الرعد، الغدران)، وثالثة عندما رصد البيئة وما تحتويه من إمراع وخصوبة "مطفلة، منابتها، حديقات"، كما لو أننا في حيّز مكاني متعدد التجليات بتعدد المشاهدات، غير أن الأبعاد الدلالية كلّها تقود المتلقي إلى الإعجاب بالمكان النجدي وقد أحاطت به هالة من القداسة والحسن والبهاء، ما يؤكد أن "دلالة المكان الديني هي دلالة على عالم المثال والكمال التي يقابل بها عالم الواقع والنقصان[...] وإن ما جعل الحس المكاني أكثر ارتباطاً بالحس الديني هو أن المكان الديني يمتاز بالمقام العالي لأنه أكثر اتصالاً بالذات المقدّسة التي تأخذ صفة الكمال"[4].

وحتّى لا نقوّل النص ما لا يريده قوله نستحضر حجة المرتضى في نجد وأجوائها المحيلة على الحياة والخير والجمال، من أنّ الحج هو السبب الرئيس لخصوبة نجد، وهو الدافع لرؤيتها على هذه الهيئة، قال الله تعالى:{ وأذّنْ في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتينَ من كلّ فجٍّ عميق} سورة الحج (27)، وقد أفاد المرتضى من تفسير الآية، وكرس من خلال هذه الإفادة صوابية رؤيته للمكان طوراً ولطقوسه المنضبطة طوراً آخر، إذ يقول في القصيدة ذاتها[5]:

أرضٌ تراها طوال الدّهر مقفرةً والحجُّ يُنبتها شِيباً وشُبّانا

تلتقي دلالة الحب بدلالة القداسة، وتتقاطعان غير مرة في ديوان المرتضى حيث المحبوبة تؤدي مناسك الحج، ما يكسب النصّ الشعري قدراً وفيراً من الدهشة والعجب ويمنحه غير قليل من أسباب الخصوبة والحسن، فها هو ذا المرتضى في باب النسيب يقول[6]:

---

[1] - (المرتضى، 1997م، ج3، ص388).
[2] - منبعقاً: منبثقاً.
[3] - القيصوم والبان: نوعان من الشجر الصحراوي.
[4] - الظالمي، آلاء ماجد داود، 2024م، *الفضاء الشعري عند ياس السعيدي*، رسالة ماجستير، جامعة كربلاء العراق، ص 69.
[5] - (المرتضى، 1997م، ج3، ص385).
[6] - (المرتضى، 1997م، ج2، ص)139.

ومنتقباتٍ بالجمالِ على مِنىً شُغلنا بهنّ عن حصى المتجمّرِ
ضعُفنَ عن الشّكوى فلمّا أردنها أشرنَ إلينا بالبنانِ المُحمّرِ
فما شئتَ من طيبٍ ذكيٍّ لناشقٍ وما شئتَ من حُسنٍ أنيقٍ لمُبصِرِ
ولله أبصارٌ سبتنا جفونُها غداةَ تلاقينا بشِعبِ المُعمّرِ
ولمّا تفرّقنا ولم يبقَ بيننا سوى ذكرةٍ من عاشقٍ متذكّرِ
بكينَ على وشكِ الفراق بلؤلؤٍ على عُصفرٍ من نرجسٍ متحدّرِ

تشعّبت إيحاءات النص بالنظر إلى معانيه المتداخلة وقد امتدّ كل إيحاء منها ليلاقي الإيحاء الآخر، ويتواشج معه، غير أن المحور الذي يجمع الإيحاءات كلها يتمثل بالمكان وما اكتسبه من قداسة مفروضة على الحاضرين، بالرغم من انشغالهم جميعاً عن أداء الطقس الديني الملزم فرضاً بشيء غيره، ما منح الفضاء الكلّي للنص هالة من الجمال والشاعرية تبدّت أول ما تبدّت في ذكر جزئيات المكان ووظيفة كل جزئية منها، هذا من جانب، ومن جانب آخر راحت الحواس تجوس في المكان وتتحسس فضاءاته كاشفة عن النسوة "منتقبات بالجمال" وقد احتجبن بالجمال والحسن، في المكان الجميل "منىً" مكان العبادة وتأدية المناسك والفروض.

كلّ ما سبق يعلل وفرة الحسن والطيب حيناً: "طيب، ذكيّ، حسن، أنيق" في سياق البيت الثالث، ويبرر حضور الألوان الواضحة سواء بشكلها المباشر أو بشكلها الإشاري التلوحي، كأن نجد: " الأحمر، اللؤلؤ، العصفر، النرجس"، ثمّ لتكتمل شعريّة المكان بشخصيات المشهد القدسي على مستويي العشق والعبادة " لله أبصارٌ"، إذ نحن بصدد:" المنقّبات، المتجمّر، الشاعر(المتكلّم)"، وقد برز الأخير بصفة العاشق المتذكّر وهو ما يزال يعاني قسوة الفراق ومشقة البعد والبين، دون أن نغفل عن الحركة التي تبديها الشخوص في هذه المساحات الممتدة وقد تجلت بمعاني الاضطراب، فالانشغال، فالإشارة، فالمغادرة، فالبكاء.

لقد أجاد المرتضى في استعراض هذا الموقف فجمع وفرّق، وأضحك وأبكى، وهو ما يزال يعيش اللحظة بأبعادها القدسيّة مسخراً في سبيل ذلك غير قليل من الفضاءات الشعرية وما يمكن أن تحتاجه هذه الفضاءات من أدوات ومستلزمات في سياق دلاليّ وصفيّ مشوّق، لأن ما يكسب المكان أهمية خاصة" هو كونه يقع بين زاويتين: زاوية التشكيل الشعري، وزاوية التأويل"[1]، إذ يصبح المتلقي شريكاً في إنتاج الفضاء الكلي للنص الأدبي.

وقال في قصيدة يرثي بها جدّه الحسين عليه السلام[2]:

حلفتُ بمن لاذتْ قريشٌ ببيتهِ وطافوا به يومَ الطّوافِ وكبّروا
وبالحصياتِ اللّاتِ يُقذفنَ في مِنىً وقد أمَّ نحو الجمرةِ المُتجمّرُ
ووادٍ تذوقُ البزلُ فيه حمامَها فليس به إلا الهديُّ المُعفَّرُ[3]
وجمعٍ وقد حطّتْ إليه كلاكلٌ طلائحُ أضنتها التنائفُ ضُمَّرُ[4]
يخلنَ عليهنّ الهوادج في الضحى سفائنُ في بحرٍ من الآلِ يزخرُ
ويومِ وقوفِ المحرمينَ على ثرىً تُطاحُ بهِ الزّلاتُ منهمُ وتُعفَّرُ
أتوهُ أسارى الموبقاتِ وودّعوا وما فيهمُ إلا الطليقُ المُحرَّرُ

[1] - طعابة، سهير، 2021م، *الدلالة الإيحائية للفضاء المكاني في شعر بدر شاكر السيّاب*، *مجلة حوليّات*، جامعة الجزائر، المجلد الأول، ع2، ص2.
[2] - (المرتضى، 1997م، ج2، ص 76).
[3] - البزل: النوق التي شقّ نابها، الهديّ: ما يُنحر لوجه الله، المعفّر: الملوّث بالتراب.
[4] - الطلائح: الهزيلة، التنائف: المفاوز.

إنّ هذا السياق النصّي على الرغم مما فيه من فوضى يحدثها الحجيج وما أتوا به من أنعام للذبح ونوق محمّلة بالهوادج، وقد وهن الجميع لطول الطريق المؤديّة إلى الحج، وأعياهم السفر على بعد المسافة ووعورة المسار، وعلى الرغم مما فيه من أسباب الموت والسكون والأسى وقد جُمعت الأنعام للذبح في ساحة واسعة، وعلى الرغم مما يعانيه القوم من ثقل الذنوب وكثرتها على كواهلهم، إذا هم ينوؤون بها، ويتبرّمون من كينونتها، حتى بات المشهد الحركي أشبه ما يكون ببحر من سراب تتلاطم فيه السفن وترتفع في أتونه الأمواج، غير أن المكان المقدّس في مكة المكرّمة قد بدّد أسباب الشؤم والأسى والموت والتعب كلّها، وأحالها إلى غير شكل من أشكال التفاؤل والفرح والحياة من خلال استحضار المرتضى للأمكنة الضيقة الفرعية في موسم الحج.

وقد تجلّى ذلك حقيقة في الآتي:

أولاً: على مستوى المكان ووصف رحابته واتساعه(لاذت قريش ببيته، طافوا، الحصيات يقذفن في مِنىً، الوادي الذي تتجمع فيه الذبائح، الساحة التي تتجمع فيها الهوادج، الوقوف في عرفات).

وثانياً: على مستوى الزمان، إذ لكل منسك من مناسك الحج وقته وحينه (يوم الطواف، يوم منىً وقذف الجمرات، يوم التضحية وذبح الأنعام، يوم عرفات).

وثالثاً: على مستوى السياق الحركي المتمثل بجلبة يحدثها الحجيج وقد ترافقت بأفعال تكرّس معاني الحيوية والاندفاع والنشاط والسعي المتواصل نحو التحرر من ربقة الذنوب والآثام، هذه الأفعال وردت في فضاء النّص لتنتظم من خلالها مناسك الحج المنوطة بالوصف، إذ نحن بصدد(لاذت، طافوا، كبّروا، يقذفن، حطّت، تُطاحُ، أتَوه، ودّعوا).

ولعل ما سلف يتناسب تماماً مع المساحات المكانية المذكورة آنفاً، مثلما يتساوق مع الإيحاءات الزمانية أيضاً، فعلى سبيل المثال لا الحصر، مفردة "البيت" الواردة في مطلع الأبيات السابقة وهي الدالة على الحيز المكاني الضيق المنغلق، نراها قد تجرّدت من قيود اللغة المعجمية، وراحت تؤدي دورها بوصفها فضاء حرّاً مطلقاً، وقد اكتسبت فاعليتها الدلالية والشعرية من إحالتها على الكعبة المكرّمة وهي ترفل في ثوب الطهارة والحياة والحسن أيام الحجّ، وفيما يأتي إشارات في كتاب الله عز وجل (القرآن) على مكانة هذا البيت وعلى شرفه العظيم، يقول جلّ من قائل: { وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ألا يشرك بي شيئاً وطهّرْ بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود} سورة الحج (26)، ويقول الله سبحانه: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهُدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيءٍ عليم} سورة المائدة (97).

كأننا بالشاعر المرتضى قد فعّل أكثر من عدسة للرؤية في مخياله الشعري، فواحدة ترصد حركة الحجيج، وأخرى ترصد المناسك على تنوّع الأماكن وتباعدها، وثالثة ترصد حركة النوق والهوادج، ورابعة ترصد ساحة الذبح وتجول بين الأضاحي المعفّرة بالتراب، وخامسة ترتّب الفضاء الداخلي للحجيج وتحتويه وقد لاذ القوم يرجون بحجّهم هذا الخلاص من ذنوبهم والتوبة مما اقترفت أياديهم، الأمر الذي خرج بالمكان القدسي –إذ نحن في مكة المكرّمة– عن الحيثيّة والأينيّة، ليشمل المشاعر والمقاصد والغايات، وقد تجاوز الحيّز المكاني الضيّق وامتدّ إلى ما بعد المسافات المحدودة، ما أكسب النص شاعرية ما كانت للتتوافر فيه لولا هذا البعد الديني المرتبط بمناسك الحج، وقد " أصبح المكان وعاء للتعبير عن هواجس المبدع ورؤاه وميداناً واسعاً

لتأملاته"[1]، قال تعالى: { ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين} سورة البقرة (198)، حيث التقى الفضاء الشعري من بعد رصدٍ دقيق للمكان وما يحتويه في موسم الحج بالفضاء الديني ودلالاته القدسية ممثلة بآي من الذكر الحكيم.

إن ما سبق يكشف لنا عن سرّ تقديس المرتضى لبعض الأماكن، ولا سيّما تلك التي تعود في نسبتها التضريسية إلى مناطق نجد والحجاز، هذه المناطق التي ترتبط في غير قليل من فضاءاتها بالمقدسات في مكة والمدينة، ذلك لأن الفضاء المكاني " يعد القاعدة الموضوعية المحسوسة التي تحتوي الظواهر والأفعال والسلوكيات، وهو إطار شامل لمجمل العناصر والصفات والأنواع والحالات والأوضاع التي تجعل من المكان دالّاً مؤثّراً وذا عمق تعبيريّ، وتنطلق معرفة الإنسان بالمكان من أن يختبره ويعيش فيه"[2]، فها هو ذا المرتضى –على سبيل المثال لا الحصر– يقسم ببيت الله الحرام قائلاً[3]:

أُحبُّكُمُ، وبيتِ اللهِ، حتّى يُقالَ: بهِ، وما صدقوا، جنونُ

وهو القائل أيضاً وقد راح يقسمُ بأماكن معلومة في مكة، لها قداستها، ولها دورها في تأدية مناسك الحج[4]:

حلفتُ بما لفّ الحطيمُ وزمزمٌ وما ضمّه خيفا مِنىً والمعرَّفُ[5]

يرد القسم في سياق الكلام لتوكيد الخبر، ولتدعيم مصداقية المتكلم عند المتلقي، الأمر الذي يفسر إلحاح الشاعر المرتضى على القسم بالمقدسات وهي المحيلة على الفضاء المكاني، لما لهذا الأخير من مكانة سامية ومرتبة عالية في نفوس المسلمين، فمرّة نجده يقسم ببيت الله بوصفه المساحة الدلالية الأوسع والأعم، ومرّة نجده يقسم بأطراف المكان وجزئياته ومحتوياته وقد نالت من فيض قداسة الأوسع والأعم ما نالت، بسبب قربها منه، وتداخلها معه في إقامة الفرائض وتأدية العبادات، وهي في الشاهد الثاني كما يأتي: (الحطيم، زمزم، خيفا منىً والمعرّف).

ويقسم أيضاً في مقامٍ آخر قائلاً[6]:

حلفتُ بالبيتِ طافتْ حولَهُ زُمَرٌ جاؤوهُ أنضاءَ إعجالٍ وإسراعِ
وبالمحصّبِ حطّ المحرمونَ بهِ والبُدنُ ما بينَ إلقاءٍ وإضجاعِ[7]
ومن بجمعٍ وقد ألقى الكلالُ بهم هناكَ أجسادَ طلّاحٍ وضُلّاعِ[8]
والقوم في عرفاتٍ يرسلون إلى محو الجرائرِ منهم دعوة الدّاعي
لَأُمطرنَّ على الآفاقِ عن كثبٍ من عارضٍ بدمِ الأجوافِ لمّاعِ

يجملُ المرتضى في قسمه ثمّ يفصّل، وهو ما يزال يجول في رحاب الأماكن المقدّسة التي لم يكن البيت العتيق أولها ولم يكن عرفات آخرها، بل إن الشاعر تجاوز المكان المحيل إلى مناسك الحج وطقوسه، وراح يقصد كل مخلوق حيّ في مواطن الحج، فثمة الحجاج يطوفون بالبيت، وثمة المحرمون يتواجدون بالمحصّب ويشرفون على ذبح

[1] - أبو زريق، محمد، 2003م، *المكان في الفن*، وزارة الثقافة، الأردن- عمّان، ، ص155.
[2] - نايف، أحمد ناجي، 2019م، *الفضاء المكاني في الشعر الحديث(السيّاب أنموذجاً)، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية*، جامعة ديالى، العراق، المجلد46، ع 2، ص312.
[3] - (المرتضى، 1997م، ج3، ص 421).
[4] - (المرتضى، 1997م، ج2، ص 309).
[5] الحطيم: بناء قُبالة الميزاب من خارج الكعبة، زمزم: بئر مشهورة بمكة تقع بجوار الكعبة يُتبرّكُ بها ويُشرب من مائها، خيفا منى والمعرّف: مسجدان واحد في بلدة منى وآخر في جبل عرفة.
[6] - (المرتضى، 1997م، ج2، ص 294).
[7] - المحصّب: موضعٌ بمنى، البُدنُ: ما يُهدى لله من الأضحيات.
[8] - الطلاح: مفردها الطليح وهو البعير الهزيل من الإجهاد، الضلاع: مفردها الضالع وهو البعير الأعرج لشدّة التعب.

الأضاحي، وثمة من يقف على عرفات، وثمة من ينظّم الحجيج، ويشرف على أعمال الحج، ذلك لأن المكان "يرتبط بسلسلة من العناصر المتصلة به من زمن وأحداث وشخصيات وتتآلف هذه العناصر لتنتج الفضاء الذي يطرح شبكة من الدلالات"[1] تساعد المتلقي على تتبع شعرية الفضاءات النصية وفي مقدمتها الفضاء المحيل على المكان الذي بات " يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخيال، والحالة النفسية، والوضع الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، فيمتزج خيال الأديب بالمكان لينتج مكاناً فنياً مشبعاً بالجمال، وإنّ ارتباط الشاعر بالمكان لا يكون بوصفه بالأبعاد المحددة، وإنما من خلال تفاعله مع ذات الشاعر وتجربته ورؤيته للمواقف والأحداث بكل ما تشتمل عليه من المظاهر الطبيعية المتحرّكة والساكنة"[2].

وعليه، فإنّ السياق الشعري عند المرتضى وهو في مقام القسم قد تجاوز الحدود المكانية، وامتدّ ليشمل النفوس والقلوب والمواقف والأعمال والطقوس والمشاعر، وقد حظيت جميعها من القداسة بما حظيت به بفضل حضورها في فضاءات الحج على تنوّع هذه الفضاءات وتمايزها واختلاف مدلولاتها القدسية، ولعلّ تكريس فعل القسم وامتداد أثره على غير بيت من فضاء النصّ يتلاءم مع ما يصبو إليه المرتضى، ويصرّح به في جواب القسم وقد تصدر البيت الأخير من الشاهد، والذي يؤكّد من خلاله ضرورة الثأر من أعدائه وضرورة الإقدام على النيل ممن يكيد له ويعمل على أذيّته.

6 – نتائج البحث:

1 – يتمسّك المرتضى بالحيّز المكاني لنجد، على الرغم من بعده عنه، بل إنه يحاول الحضور فيه من خلال شعريّة تنتقل به إلى بلاد نجد وما يحيطها، أو تنتقل بفضاء نجد المكاني إليه حيث هو في العراق.

2 – تسبغ مراسم الحج على بلاد نجد قداسة يتغنّى بها المرتضى، ويستدعيها على المستوى الديني في كلّ آن، سواء في نصوص المديح والافتخار أو في نصوص النسيب والرثاء.

3 – يحلّ البعد الديني في شعر المرتضى محلّ المُقسَم به، إذ نحن بصدد (مكة، البيت الحرام، مِنىً، زمزم، الحطيم،...)، ما يجعل هذا البعد متوشحاً وشاح القداسة والحسن والبهاء.

4 – يقف المرتضى على المكان ويصوّره ويجوس في تفاصيله، فيبدو المكان في عدسة مخياله واسعاً رحباً مفتوحاً ينضح بالبهجة والسرور، وقد عكس حال الشاعر المغمور بالسعادة، وهو بالقرب من ممدوحه، مثلما يبدو ضيّقاً مغلقاً يوحي بالحزن والكمد عاكساً حال الشاعر المتأسي والمتألم جرّاء إحساسه بالاغتراب عن المكان.

7 – ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1 – إبراهيم، أحمد ملحم. 2011م، *شعرية المكان (قراءة في شعر مانع سعيد العتيبة)*. ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، عدد الصفحات: 278.

[1] - (نايف، 2019م، ص312).

[2] - حسن، مرتضى حسين علي، 2016م، *جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث (سعدي يوسف أنموذجاً)*، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا، ص9.

2 – ابن الجوزي، د.ت. *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الصفحات: 505.

3 – ابن خلكان،1970م. *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: د. إحسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت – لبنان، الصفحات: 524.

4 – أبو زريق، محمد. 2003م. *المكان في الفن*، وزارة الثقافة، الأردن– عمّان، الصفحات: 198.

5 – حسن، مرتضى حسين علي. 2016م، *جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث (سعدي يوسف أنموذجاً)*. جامعة فيلادلفيا، رسالة ماجستير، عدد الصفحات: 132.

6 – الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. 1983م، *سير أعلام النبلاء*. ط1، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ج17.

7 – زهيرة، بثينة. 2025م، *الفضاء الجغرافي لدى شعراء المقطعات في العصر الأموي. مجلة جامعة تشرين*، اللاذقية، م47، ع2، الصفحات: 27– 38.

8 – الشمري، أحمد سالم عبيد. يناير 2013م، *أساليب الصياغة في شعر الشريف المرتضى(436هـ). مجلة اللغة العربية وآدابها*، كلية الآداب في جامعة الكوفة، العراق، الصفحات:81 –117.

9 – طعابة، سهير. 2021م، *الدلالة الإيحائية للفضاء المكاني في شعر بدر شاكر السيّاب. مجلة حوليّات*، الجزائر، جامعة الجزائر، م1، ع2، الصفحات: 69– 85.

10 – الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن. 1961م، *الفهرست*. ط2، تحقيق: محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، الصفحات: 676.

11 – الظالمي، آلاء ماجد داود. 2024م، *الفضاء الشعري عند ياس السعيدي*، رسالة ماجستير، جامعة كربلاء، العراق، الصفحات: 193.

12 – قشيش، هاشمي. 2018م، *دلالات الفضاء في الخطاب الشعري المعاصر (الشعر الجزائري ما بعد الثمانينات أنموذجاً)*، أطروحة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الصفحات: 211.

13 – المرتضى. 1997م ، *ديوان الشريف المرتضى*، شرح محمد ألتونجي، ط1، دار الجيل – بيروت، ثلاثة أجزاء.

14 – نايف، أحمد ناجي. 2019م، *الفضاء المكاني في الشعر الحديث(السيّاب أنموذجاً). مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية*، جامعة ديالى، العراق، م46، ع 2، الصفحات: 310– 323.

15 – ياسين، معتز قصي. 2020م، *دلالات المكان في شعر حامد عبد الصمد البصريّ. مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع*، كليّة الإمارات للعلوم التربوية، ع58، الصفحات: 522– 538.